أخبار الخليج

العدد (٩١٧١) السبت ٢ ربيع الأول ١٤٢٤ هـ ـــ ٣ مايو ٢٠٠٣م

احذروا ثقافة الاستعمار الجديد

بقلم:

سميرة رجب

«هؤلاء الكتاب مستغرقون في همهم الكبير وهو قبض ثمن كتاباتهم ماديا أو معنويا، وإفراغ ما في جوفهم من محتويات، سواء كانت هذه المحتويات عبارة عن بعض الجمل الإنشائية، أو بعض من الأحقاد والنوازع الذاتية».

كلما شاهدت الجنرال الأمريكي الصهيوني جارنر وهو يجوب العراق من جنوبه الى شماله، وكلما شاهدت وزير الدفاع الأمريكي اليميني المتطرف رامسفيلد بابتسامته الميتة وهو محاط بدرع من العسكريين الأمريكيين يخطو على الأرض العراقية، أكاد أفقد عقلي. هكذا تتحدى الامبراطورية الأمريكية الجديدة المشاعر العربية دون أدنى اعتبار لتاريخ هذه الأمة ومطالبها، وهكذا سوف يعلموننا ما يدعى بالديمقراطية من خلف الأسلاك الشائكة، وبالإذلال، وبحوار البنادق والرشاشات، والسيطرة على العراق بآلاف الدبابات والمدرعات، وقصف المساجد، وتمدير تاريخ وحضارة العراق وجميع المعالم والبنية التحتية العراقية بحجة انها مقتنيات صدام حسين ويجب ان تدمر، وبالجدال الدائر حول تشكيل الحكومة العراقية على أساس طائفي وأثني بعد أن كان الجدال العراقي الدائم هو المطالبة بالتعددية وبمشاركة جميع الأطياف السياسية التي اشترك فيها العراقيون بجميع مذاهبهم وانتماءاتهم بنفس الروح الوطنية على مدار العصور.

وفي كل مرة أكون في هذه الحالة تناشدني خاطرة واحدة وملحة، هي معرفة رأي أولئك الكتاب والمثقفين والمناضلين العرب الذين كانوا ينظرون ويطالبون بتنحية الرئيس العراقي لتحاشي الحرب والاحتلال، وينظرون بأن الخطيئة التي قامت بها القيادة العراقية الديكتاتورية بنظامها الشمولي وغير الديمقراطي هي السبب الوحيد الذي سوف يؤدي الى الحرب بالضرورة، ولأن الأمريكان هدفهم نشر الديمقراطية في المنطقة، وخطيئة العراق انها دولة لا ديمقراطية، وبه عدد من المعتقلات كما به قصور تقع تحتها السجون، كما أن خطيئة حزبه الحاكم أنه حزب عشائري، وان ظاهرة العشائرية الحزبية هي أصل الأزمة وأسبابها، وبذلك يجب ان تأتي القوات الأمريكية لتصحيح مساره اللاديمقراطي، لأن الديمقراطية هي منتهى الأماني الأمريكية التي سوف تحول دول العالم الثالث الى جنة، كما الجنة في الولايات المتحدة بملايينها من العاطلين وفاقدي المأوى، وبحكوماتها المتتالية المهووسة بكل أجهزتها الاستخباراتية بالمكارثية، وبمجتمعاتنا العنصرية، وبحكوماتها المتتالية التي ضربت ومازالت تضرب جميع القوى الديمقراطية في العالم، والتي تحولت فجأة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي الى المرشد الروحي والعلمي والعسكري للديمقراطية في العالم.

ولأن وقع الاحتلال ومجريات أحداثه اليومية من عظائم الأمور اليوم، وكل ما نتقصاه هو متابعة تلك الأحداث، فإن قراءة آراء أولئك الكتاب تعد من الأمور غير المرغوب فيها حفاظا على الأعصاب والمشاعر العربية الملتهبة في هذه الأجواء المتوترة. ولكن، وبالرغم من ذلك، تقع أعيننا بين الوقت والآخر على أقلام أولئك الكتاب الذين أعطوا أنفسهم الحق في التنظير في الشأن العراقي دون أي عمق فكري أو موضوعي أو سياسي أو وطني، مما يحول كتاباتهم إلى مجرد عرض عضلات بلاغية ونوع من طلب الشهرة وادعاء المعرفة مسنودة بما تعطيهم تلك الصحافة من الامتياز الشيء الكثير، مما يدل على حجم الخواء الثقافي في قطاعات معينة من مجتمعنا البسيط هذا، ومما يشير الى سيطرة ثقافة المحاباة والسير على خطى أولي الأمر وطلب الحظوة من المتحكمين في الارزاق، ومما يدل على ان الكتابة تحت هاجس لقمة العيش أو طلب في المواقع والمناصب لهي أمر بعيد جدا عن الفكر والحس الوطني المثقل بالهم العميق فيما هو واقع على هذه الأمة من مخاطر. ولكن وللأسف الشديد ان هذه الكتابات تعمل في الجانب الآخر، من حيث يعلم أو لا يعلم كتابها، على نشر المفاهيم السطحية، وتمييز وتشجيع سلوكيات الحظوة مقابل الكفاءة، وضرب الثقافة الوطنية في الأعماق في فترة نحن بأمس الحاجة فيها للمشاعر القومية والوطنية لمواجهة ما حصل وما هو قادم من أخطار استعمارية.

ان ما يدهش حقا ان هؤلاء الكتاب لم يتعظوا مما يقع اليوم على الأرض العربية، لا بل لم تهتز مشاعرهم بأدنى درجات التعاطف الوطني مع أمتهم المقبلة على عهد جديد من التفتيت والتشرذم وتعميق القطرية والذاتية لتسهيل السيطرة على مقدراتها، وان هؤلاء الكتاب مستغرقون في همهم الكبير وهو قبض ثمن كتاباتهم ماديا أو معنويا، وإفراغ ما في جوفهم من محتويات، سواء كانت هذه المحتويات عبارة عن بعض الجمل الإنشائية، أو بعض من الأحقاد والنوازع الذاتية، أو ما يعتقدون أنه ثقافة يجب نشرها وتوعية الجماهير بها لتنوير المسالك والمخارج. ومما يدهش أيضا أن هذه الكتابات لم تتغير على مدى عقود طويلة إلا في حدود التغيرات التي تقع في دائرة مواقع أعمال كتابها، فالكتابة لديهم تتلون بلون الرئيس أو المسئول المباشر أو غير المباشر عن أرزاقهم، وبالرغم من ذلك فهم مازالوا يعتقدون أن الحياة خارج مواقعهم ومكاتبهم تسير كما كانت سابقا، لأنهم يعيشون في دوائر صغيرة ومغلقة عليهم وبهم ومنهم، لا يقرأون المجتمع إلا من خلال أرقام مبيعات الصحيفة ولا شيء آخر.

وخلاصة القول، هو ان سياسة الامبراطورية الأمريكية المهيمنة، فيما يخص مبادرة باول في نشر الديمقراطية المشئومة حسب رؤيتهم في هذه المنطقة، في تغيير المنهج الفكري والثقافي والديني لهذه المجتمعات العربية والإسلامية، معتمدة تماما على هذه الأقلام المحلية الساذجة والمنتفعة و«المتباكية والمتصايحة» التي هي اليوم في مقام الدعاة الجدد للسياسة الاستعمارية القادمة.

اليوم وبعد دخولنا الفعلي في عصر الاستعمار والاحتلال مرة أخرى، فإن التصدي لتلك الأقلام شفاهة و/أو كتابة لهو من الواجبات التي لا يمكن ان تقل عن واجب التصدي للاستعمار بجميع أشكاله. إن المجتمعات العربية التي عانت ولاتزال تعاني من القمع والإرهاب الفكري والجسدي وصل بها الحال للوضع الذي لا يمكن السكوت عنه بعد اليوم، فإن كشف أصحاب النفوس الضعيفة والأنانية والمريضة والحاقدة على الأمة العربية، وكشف ثقافة التزييف والتواطؤ لهو واجب وطني لا يمكن التنازل عنه بعد اليوم.

Sameera@vinrajab.com